

الصراع الهوياتي في الجزائر - مقارنة نقدية ثقافية من منظور محمد العربي ولد خليفة -

Identity Conflict in Algeria – A Cultural Critical Approach from the Perspective of Mohamed Al – Arabi Ould Khalifa -

محمد ديدان *

تاريخ النشر: 2021/12/20	تاريخ القبول: 2021 / 05 / 06	تاريخ الإرسال: 2021 / 01 / 24
-------------------------	------------------------------	-------------------------------

الملخص:

اكتسب خطاب الهوية أهمية غير مسبوقة في الدرس الثقافي والنقدي الحديث، لارتباطه بالدراسات الكولونيالية وما بعدها التي تعتبر فرعاً منه، ودخوله ضمن المهمش والثانوي الذي يعتبر أحد مباحثه، وعليه يهدف هذا المقال إلى مساءلة المصطلح، والبحث في علاقته بالثقافة وما تخفيه من أنساق، فضلاً عن اكتشاف الأسباب والملابسات التي أسهمت في تحويله إلى ساحة صراع لغوي وسياسي وعقدي بين مختلف التيارات الفكرية والأطراف الثقافية في الجزائر حسب المفكر و الباحث محمد العربي ولد خليفة، الذي عالج الموضوع من منطلق اجتماعي ثقافي اتسع لمختلف الثنائيات التي يفرضها عادة هذا النوع من الموضوعات.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الإسلام، العربية، الأمازيغية، الذات / الآخر.

Abstract:

Identity discourse has acquired unprecedented importance in the modern cultural and critical lesson, due to its association with colonial studies and beyond, and its entry into the marginalized and secondary, and therefore this article aims to question the term, research its relationship to culture and its hiding patterns, as well as discover the reasons and circumstances that contributed to its transformation into The arena of a

المؤلف المرسل: محمد ديدان mohameddidne90@gmail.com

* جامعة مولود معمري - تيزي وزو - mohameddidane90@gmail.com

linguistic, political and contractual struggle between the various intellectual currents in Algeria, according to the thinker Mohamed Al- Arabi Ould Khalifa, who dealt with the subject from a sociocultural point of view that expanded the various dualities imposed by this type of topic.

Key words: Identity, Islam, Arabic, Berber, Self/Other.

*** **

1. مقدمة:

مر الفكر الجزائري بمراحل تاريخية متعددة جعلته يعيش حالة من الارتباك الثقافي جراء التراكمات المعرفية الناتجة عنها، ما حتم عليه مساهمة التحولات الظرفية الطارئة على الفكر الإنساني عامة، لا سيما ما تعلق بتفكيك الثنائيات التي كان ينظر إليها كمتلازمات تشترك في الحضور والغياب رغم تقابلها اللفظي والمنطقي، من بينها ثنائية (الأنا/ الآخر) التي تمثل جوهر سؤال الهوية.

فرض الواقع الثقافي في الجزائر غداة الاستقلال ازدواجا نسقيا خطيرا، ضاعقت أو كادت تضيق معه هوية الشعب وأصالته، إذ تطبع بثقافة عربية أصيلة وأخرى غربية مستعارة، نتج عنه لغة عربية أصيلة ولغة فرنسية وافدة، فتمخض عن ذلك ازدواج ثقافي ولغوي أفضى إلى ازدواج في العقلية والتفكير أيضا، الأمر الذي استرعى انتباه محمد العربي ولد خليفة، الذي لاحظ تحول ذلك الازدواج رويدا رويدا إلى سجال ثقافي، بطابع عرقي قبلي إيديولوجي، تبنته بعض الأطراف لتذكية صراع وهمي بين الجنسين العربي والأمازيغي، ليعتمدهم جوهر إشكالية المقال في الإجابة عن التساؤلات الآتية:

هل يمكن الحديث عن هوية جزائرية خاصة و متفردة، و فيما تتمظهر ؟ إلى أي مدى قد يؤثر الاختلاف اللساني في استقرار المعايير المحددة لها؟ وهل يعتبر التنوع الثقافي واللهجي عامل قوة أم مؤشر ضعف في حسابات الهوية؟ ثم ما حقيقة الصراع العربي/ الأمازيغي في الجزائر هل يعبر حقيقة عن نقاش فكري تاريخي يصب في مصلحة البلد أم عن حرب تمارس بالوكالة لضرب استقرارها؟

على ضوء هذا الإشكال تستند هذه الدراسة على فرضية مفادها: أن التنوع العرقي والثقافي في أي بلد هو محصلة حتمية لمرحلة تاريخية مر بها الفكر الإنساني عامة، انتقل بموجبها من التفرد إلى التنوع، و من الوحدة إلى التعدد، و من الذات إلى الموضوع، حتى قيل إن تلك الخصوصيات هي التي تؤسس لترابط تلك الأمم في زمن العولمة و التعددية

الثقافية، بيد أننا لا نلتزم تسليمًا بهذا الواقع عمليًا وإن رُوج له نظريًا على نطاق واسع، بدليل التناحر بين البيض و السود في الولايات المتحدة الأمريكية ، والقمع الذي يتعرض له مسلمو الإغور في الصين الشعبية، والصراع الثقافي بين العرب و الأمازيغ، و الأصاليين و الحداثيين في الجزائر ، والذي شهد تصعيدًا لافتًا منذ حراك 22 فيفري 2019م الشهير ، والنقاش المنار حول مواد الهوية في الدستور الجديد (2020م) على مواقع التواصل الاجتماعي خاصة، ما اضطر الدولة الجزائرية إلى سن قانون تجرم فيه خطاب الكراهية مهما كان مصدره، وهو ما يعطي الانطباع أن ذلك التنوع هو سلاح ذو حدين.

ولأن هذا النوع من المقاربات يحتاج إلى منهج تكاملي يجمع بين الاستنباط والتحليل والمناقشة والنقد، لم أجد بدا من الاستعانة بالنقد الثقافي الذي يفتح على المناهج النسقية والسياقية، ويستدعي الدراسات الاجتماعية والنفسية والثقافية والسياسية، للوصول إلى معرفة الأسباب و الملامسات والأطراف القابعة خلف هذا الصراع، وإدراك الغاية منه، وتقديم الحلول الممكنة له، ومناقشة ولد خليفة حولها.

2. الهوية والثقافة:

لا شك أن الهوية هي التي تعبر عن الخصائص الأساسية، والسمات المشتركة للأمة، التي يتحدد بموجبها نمطها الثقافي وبعدها الحضاري الذي يميزها عن غيرها، فهي ذلك الجسر الذي يصل الفرد ببيئته الاجتماعية، وهي تلك الشروط التي توضع له كي يتم إدماجه وقبوله فيها أو رفضه دونها، والمتعلقة باللغة والدين والعادات والتقاليد والأعراف، لذا كانت من القيم الراقية التي يحاول بها إثبات الذات، والافتخار بالانتماء، والتواصل مع المجتمع، والتفاني في خدمة الأمة؛ ولقد تناولها ولد خليفة كغيره من النقاد بشيء من التفصيل، مستندا على التجربة الجزائرية قديما وحديثا، ومشاركا جمعا من المفكرين الرأي في المسألة، يتقدمهم مولود قاسم نايت بلقاسم المتحدث عن الشعب الجزائري قائلا: « إنما كانت أقوى الدوافع له في كفاحه هي بطاقة تعريفه، هي هويته، هي استرجاع شخصيته وذاتيته، هي إنيتته وأصالته اللتان هو بهما من هو، وليس شيئا بدونهما إطلاقا »

1

اتصل موضوع الهوية عند ولد خليفة ببُعدين رئيسيين: أولهما الاحتلال ومساعيه الحثيثة لطمسها، نتيجة علمه المسبق بمدى تأثيرها على المجتمع أفرادا وجماعات، وثانيهما

جذورها الأولى التي تعود إلى ماضي الجزائر البعيد، القائم على ثلاثة أبعاد: الدين الإسلامي وأصالته، واللغة العربية التي اقترنت به فلم تنتفك عنه، إضافة إلى الأمازيغية كلغة وثقافة مميزة للجنس الجزائري منذ نشأته، « إن جوهر الوطنية الجزائرية اعترازا طبيعيا بالهوية العربية الإسلامية، وبالأمازيغية باعتبارها الرابطة القوية بين الإسلام عقيدة وحضارة، والعروبة لسانا وثقافة، فإذا اهتزت تلك العلاقة أو ضعفت، فهناك يقينا بصمات للذئب الكولونيالي، وروائح متعفنة لتركته الإجرامية، وأن الدولة تعاني من الوهن و الاضطراب بسبب فساد التدبير و سوء التقدير »².

درس الباحث الهوية من وجهة علم النفس والاجتماع، فقسمها إلى فردية وجماعية؛ فالفرد - عنده - تتنازعه ثقافة تدعوه تارة ليشبه غيره، وتدعوه أخرى إلى إبراز شخصيته ليؤكد تميزه ووجوده، وليحصل على اعتراف جماعته بذلك الوجود الفاعل، من خلال تأكيد الدور و الوظيفة، و بناء مكانة أو خطوة فيها، وهو ما يعني أنه يعطي لموضوع الهوية بعدا ثقافيا، سائرا في ذلك على نهج عالم الاجتماع واللساني البريطاني جون أوستين (J Austen) الذي توصل بعد دراسات ومناقشات عديدة في مجال العلوم الإنسانية إلى « أن المعطى الثقافي هو ثابتها المتغير »³، وسانده في ذلك بعض المفكرين الذين أجمعوا على أن الثقافة تتدخل ضرورة في مفهوم الهوية، فقالوا: « إذا بحثنا عن مدى الوعي بالهوية عند فرد أو جماعة، فإن الأمر يتعلق بالانتقال من التفرد إلى الأفراد ، أي إبراز ما هو مختلف عن الغير و إغفال ما هو مشابه لهم، وهنا تتأكد أهمية المعطى الثقافي »⁴.

ولقد أورد ولد خليفة دراسة يوضح خلالها هذه العلاقة من منظورين مختلفين، إن لم نقل متعارضين، لا يربط بينهما إلا المعطى الثقافي: اتجاه "موضوعاتي" يعطي الأسبقية للمجتمع في اكتساب الثقافة، واتجاه "تذاتي" يعطي الفرد الحرية في اختيار النهج الثقافي الذي يريد، وفي كلا الاتجاهين إيجابيات وسلبيات حاول مناقشتها للوصول إلى مفهوم نظري يقترب من الصواب.

يعود تعاظم دور الثقافة في تشكيل الهوية عند أصحاب الاتجاه الموضوعاتي إلى نظريتهم التي ترى أن الهوية عبارة عن معطى أولي ينتقل بين الأجيال عن طريق الوراثة، ويتبناه الفرد تلقائيا بمجرد عيشه في بيئة معينة، وهذا ما يفتح الباب - حسب الباحث - أمام تنامي "ظاهرة الإثنية الثقافية" التي تنمو في كنف النظرة الاستعلانية للثقافة،

والتعصب للبلد والعرق واللغة، و حصر العبقرية والإبداع في مجموعة دون غيرها، حتى تغدو "عرقية الهوية والهوية العرقية مفهوما واحدا"، «و من الناحية المنهجية فإن المدخل الموضوعاتي (Objectiviste) يفترض أن الأفراد هم مجرد موضوع للهوية، وكأنهم مجموعة من طوابع البريد تمر أمام آلة تضع عليهم الأختام، والذي لا يحمل الختم هو إما شخص هامشي، وإما متمرد و بلا جذور»⁵.

أما أصحاب النزعة الذاتية فيقفون على النقيض من نظرائهم، إذ يعتبرون أن الهوية تخضع لإرادة الفرد المنبثقة من الذات الداخلية ابتداء، وأنها مجرد اختيار شخصي تحكمي، وأن المعطى الثقافي رغم ثباته إلا أن قابليته للتغير تبقى ممكنة حسب الظروف الاجتماعية، ومدى قدرة الجماعة على اختيار وجهتها وتحديد انتمائها؛ وهو ما يعني ضمنيا تجاوز البعد الوراثي، واستبعاد الهوية الإثنية الثقافية التي تأخذ معنى الجبر و الفطرة، إلا أن ما يؤخذون عليه مبالغتهم في الإعلاء من قيمة الفرد، واختزالهم للهوية في شخصه، مقابل التغاضي عن الدور الذي تقوم به الثقافة كموضوع، وهو ما جعل الباحث يختلف معهم حين يقول: « فالهوية في نهاية المطاف ليست أكثر من إحساس بالانتماء والتعلق بمجموعة تتحول عن طريق التجريد إلى إطار تخيلي»⁶.

الحديث عن الانتماء حدا بولد خليفة إلى البحث عن أسباب الازدواجية والضعف الذي يميز الهوية العربية الإسلامية بصفة عامة والجزائرية على وجه الخصوص، فوجد أن السبب المشترك بينهما هو الاستعمار الذي عاث فسادا في البلاد الإسلامية لسنوات عدة، من خلال بسط هيمنته الثقافية وقيمه الأخلاقية قبل العسكرية، لأن تحقيق أهدافه على المدى البعيد، وضمان استمرارية مصالحه حتى بعد مغادرة تلك الديار مرتبط بالسيطرة على العقول قبل الحقوق (الطاقة والبترو)، ويمر حتما عبر تكوين وكلاء احتياطيين من النخب الفكرية و السياسية المحلية تنوب عنه في ذلك؛ وهو ما يبرر الاهتمام المؤقت والمرحلي بالفكر على حساب المادة، في عالم تسيطر عليه المصالح وتبرر فيه الغايات الوسائل، وقد صدر في ذلك عن إدراك مسبق مفاده أن الجماعة التي تشعر بالغربة في بيئتها، والتي تعجز عن تحديد هويتها الاجتماعية والثقافية تنتفي لديها القدرة على معرفة نفسها و تحديد مكانها و دورها وشرعية وجودها، فضلا عن إنجاز أي مشروع مهما كان نوعه أو حجمه؛ كما تتشكل لديها عقدة أسماها «الهوية السلبية (Negative

(identity) «⁷، التي تتراكم إلى أن تصل بالفرد إلى احتقار الذات، وهي الأهداف التي تحقق مع الأسف جزء كبير منها على يد فئة وصفها ولد خليفة بـ "الفلول المضللة" التي لم تتوان في الثناء عليه، وتثمين ما خلفه من إنجازات - بزعمها -، من خلال «التغني بفضائل ما قبل 1962م، والبحث في فضلات الكولونيالية المتعفنة عن الخيرات والغنائم»⁸، وهم في هذا يستهدفون إلحاق الجزائر - قسرا - بفرنسا ثقافيا وعلميا، كما يسعون إلى استلاب المجتمع الجزائري عقديا وثقافيا، حتى يكون مقلدا تابعا، لا مبدعا متبوعا، في خطوات متتالية لا تغني إحداها على الأخرى في طريق تحطيم بنيته الاجتماعية والثقافية، وهو ما جعل ولد خليفة يؤكد أنه «لا جدوى من طرح أسئلة عن الهوية بهدف إعطائها تعريفا يحدد كنهها بشكل نهائي يأتي من خارجها (...) وبالتالي فإن السؤال الأكثر إجرائية هو كيف ولماذا في حقبة زمنية وسياق محدد تثبت هوية معينة أو يعاد فيها النظر؟»⁹.

3. الدين كركن من أركان الهوية:

أجمع علماء الاجتماع، وأسياء البشر أن الدين من أكثر مكونات الهوية تمظهرها في حياة الكائن الإنساني، واقتدارا على فعل الهيمنة والتأثير، فقد أثبتت التجربة التاريخية أن مختلف الأنساق والنظم الاجتماعية التي استهدفت علمنة الحياة بنفي الدين، واستبعاده كلياً من كيانها انتهت إلى الفشل والإفلاس، ذلك أن «نفسية الفرد في المجتمعات التاريخية على الأقل مفعمة بالزعة الدينية، تلك التي تعد جزءاً من طبيعته»¹⁰. بمعنى لا يمكن أن تقوم ثقافة أو حضارة ما بمعزل عن المعتقد الديني، لكونه يدخل مباشرة في تكون الأنا الواعية للفرد بتعبير مالك بن نبي القائل: «فكأنما قدر للإنسان أن لا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية أو بعيداً عن حقيقته»¹¹.

إن الذي حمل ولد خليفة على الاهتمام بهذا الجانب أكثر من غيره ثلاثة أسباب:

الأول: شعوره بضرورة الرد على الحملة الصليبية التي قادها قساوسة الاستعمار، وتصحيح الصورة النمطية التي ما فتئ المستشرقون ووسائل الإعلام الغربية يروجونها بهتاناً وظلماً عن الإسلام؛ كزعمهم أنه يرفض الآخر (الغرب) جملة وتفصيلاً، وأنه يقوم على العنف والدموية والتطرف والإرهاب، مقابل إظهار الحضارة الغربية في ثوب الحضارة المتسامحة، المفتحة، الداعية إلى التقارب والتبادل والحوار، وهي مقولات تظهر الخير وتضمر خلفه، يقول في هذا: «أما الإسلام فقد أصبح في قاموس القوى المهيمنة مرادفاً

للتعصب، والعنف الأعشى، وأشكال التطرف والانغلاق، والقذارة وتحقير المرأة، الاعتداء واحد ولكن الأسلحة المستعملة اختلفت باختلاف ظروف المواجهة»¹².

والحقيقة أن الحضارة الإسلامية تتميز عما سواها بدين الإسلام، الذي يتسم بالشمولية، إذ فيه خبر ما قبلنا، ونبا ما بعدنا، وحكم ما بيننا؛ دين ناسخ لما قبله، وبمثابة الخلاصة الخاتمة لما تقدم، لا يؤمن به من ينكر الرسل والكتب والشرائع التي سبقتها، عكس الديانات الأخرى التي طالها التحريف، فاعتبرت الكفر بالرسالة المحمدية شرطا لاعتناقها، ولم تتوان في تشويه صورة المسلمين، ما جعل الباحث يثور ضد سياسة الكيل بمكيالين المعتمدة من طرف القوى الغربية، حين لخص الوضعية قائلا: « وبكلمات بسيطة إذا قاومت الجور والعدوان وأنت مسلم، إذن فأنت متطرف حتى إذا كان انتماءك للإسلام بالميلاد والاسم الذي تحمله، لا يتساءل أحد لماذا لا يطلب ذلك من اليهود في فلسطين المغتصبة، والبوذيين في سيريلنكا، والهندوس في عموم الهند و(السيح) بوجه خاص، وعصابات كونكلان كلاس في الولايات المتحدة الأمريكية»¹³.

أما السبب الثاني: فيبطل فكرة حصر الإسلام في جنس العرب على سبيل التلازم دون غيرهم، مثلما كان منتشرًا أثناء الاستعمار وفي السنوات القليلة بعد الاستقلال، وهو ما اعتبره الطرف الأمازيغي موقفا إيديولوجيا يهدف إلى استبعاده أو الهيمنة عليه، لأن الجزائري كان إلى وقت قريب يعتبر أن المسلم هو عربي ولا يمكن أن يكون غير ذلك، لعدم تمييزهم بين العروبة كلغة وقومية، وبين الإسلام كدين ووعي، وهو ما أطلق عليه الباحث مصطلح « القيم الغالبة (Valeurs dominante) التي يتحول بعضها كما هو في تلك الفترة العصبية إلى قيم ملجأ (Valeurs refuge) »¹⁴.

وإذا كان بعض المفكرين ينظر إلى هذه الجزئية من ناحية إيجابية، ويعطيها بعدا قوميا بحجة إسهامها في الحفاظ على الهيكل العام للهوية، وعلى وحدة الأمة العربية، إلا أن الدارس المتفحص لهذا المنهج يدرك أنه يدخل ضمن خطة استعمارية تنتهي إلى إضعاف العالم الإسلامي وتقسيمه على أساس اللغة والعرق والجنس تحت غطاء الوحدة القومية، التي تعد هي نفسها نظرية فاسدة من وجهة نظر الإسلام، لكونها تنادي بأخوة كل عربي ولو كان كافرا، واستبعاد ما دونه وإن كان مسلما، رغم أن: « العروبة ثقافة وليست عرقا، ولا

سلاسل من النسب، إنها انتماء لا معنى له خارج الإطار الحضاري للإسلام عقيدة ومنظورا متكاملًا لعلاقة الإنسان بنفسه وبالكون»¹⁵.

أما ثالث الأسباب فالرد على ربط العنصر الأمازيغي دون غيره بالبعد الفرانكوفوني العلماني المعادي لكل ما هو عربي ومسلم، بينما الحقيقة أن ذلك الفكر هو توجه عالمي، يدخل ضمن سياسة " فرق تسد"، ولقد تبنته بعض الأطراف لجهلها بمقومات هويتها، وأركان دينها، ومنظومة قيمها، وهو ما اعتبر عاملاً محفزاً لقوى الهيمنة لتجسيد مشاريعها الفكرية والثقافية على نطاق واسع؛ ذلك أن الجهل بالشئ يورث قلة الاهتمام به، والتخلي عن الانتصار له، وهو ما جعل العلم بتلك الثوابت فرض عين لا يعذر بجهله أحد، فقد استشكلت عديد القضايا ذات الصلة بالبعد الديني على المفكرين الجزائريين، خاصة ما تعلق ببيان الموقف من الحضارة الغربية ومدى الاستفادة منها، والحدود الواجب التوقف عندها، ما استدعى إثارة نقاش واسع أسفر -حسب ولد خليفة- عن وجهتي نظر متباينتين، تراوحتا بين التأييد المطلق والرفض القطعي، و اشتركتا في السلبية والبعد عن الحلول التوافقية، وقد لخص ذلك قائلا: « يمكن القول إذن بأن هناك جزائر تتجه نحو الغرب، وجزائر أخرى مصممة على أن تكون ضده، ولكن ليس نفس الغرب الذي له في الحقيقة وجهان، أحدهما ينشر الأمل، والآخر يدعو إلى الحقد والكراهية »¹⁶.

إن اتهام الحضارة الإسلامية بكونها تقصي الحضارات الأخرى بالكلية هو اتهام باطل تكذبه كثير من الشواهد التي تثبت تفتحها على الحضارات السابقة أخذًا وعطاءً، ذلك أن الدين الإسلامي ليس مجرد طقوس تعبدية مثلما يعتقد بعضهم، إنما لجهل بمقاصده ومقتضياته، أو إمعانا في محاربته ومعاداته؛ وإنما هو منهج حياة يسع الروحيات والمعاملات، فيتدخل ضرورة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مسعاها لإدراك الكمال و بلوغ المنتهى على الصعيدين المادي والمعنوي، وعليه يظهر أن ولد خليفة لا يرى بمجاعة الغرب وأتباعه في جزئية استئصال الدين تدريجيا من الحياة العامة، ويعتبره منافيا لكمال وجود الإنسان، ولمقاصد الشرع، ذلك أنه لا يعيق القيم الإنسانية، وإنما يضفي عليها الجانب الخلقي حتى تكتسب الشرعية، « فالإسلام هو الأممية الوحيدة التي تحترم الخصوصية، تؤاخي بين المجموعات الوطنية على أساس القواعد الخمس للعقيدة السمحاء، وتأمّر بالعدل وتساند العقل والحرية »¹⁷.

4. اللغة كحامل للثقافة :

تعتبر اللغة شرطا أوليا لنشأة الثقافة، لكونها القناة الناقلة لموروثها الشفوي، والوعاء المحتوي لكل تمظهراتها، ما يجعل العلاقة بينهما علاقة تلازم واقتران. يتشاركان خلالها في الحضور والغياب؛ و إلا لما حافظت الثقافة على أصولها، ولما انتقلت تواترا عبر الأجيال، ولبقيت في نطاق الشفوية معرضة للاندثار. فاللغة خاصية اجتماعية تحتوي ثروة ثقافية، وليست مجرد أصوات تنتهي مهمتها عند الاستجابة للحاجات الضرورية، لذا قيل إنه على المترجم في ميدان العلوم والفنون إذا أراد التميز في مجاله، و التمكن في تخصصه أن يحيط بالحد الأدنى على الأقل من ثقافة اللغة المترجم عنها والمترجم إليها، باعتبار أن اللغة لا يمكن لها العيش إذا لم يكن لها ثقافة مكتوبة أو على الأقل شفوية، « فهناك تعبيرات في اللغة ليس لها مقابل في لغة أخرى، وهناك كلمات تحمل شحنة تعبيرية خاصة لا وجود لها في نظيرتها من اللغات الأخرى »¹⁸.

لعبت اللغة العربية دورا محوريا في محافظة الأمة على وحدتها ووجودها، وفي اكتساب موقعا مهما في العالم الحضاري؛ ما جعل أعداءها يتربصون بها الدوائر، بغرض الحد من فاعليتها، لأنها ليست قضية شكلية تقتصر على مجرد التواصل والتبليغ، وإنما هي قضية مفصلية، باعتبارها أساس كل نهضة، ووسيلة كل علم، وعلامة للحرية والاستقلال، بل حتى وإن سلمنا جدلا بأنها مجرد أداة للتواصل فإننا لا نستطيع رد الحقيقة القائلة بأن التعبير عن الأفكار و الآداب بعمق ووضوح لا يتأتى إلا بلغة القوم، وإلا اعتراه النقص من جانب ما، « ذلك أن العربية ليست لغة وأداة فحسب، ولكنها لغة فكر أساسا؛ وحتى الشعوب والأمم التي انضوت تحت لواء الإسلام وإن كانت احتفظت بلغتها الوطنية، فإنها اتخذت من اللغة العربية وسيلة للارتقاء الثقافي والفكري، وأدخلت الحروف العربية إلى لغاتها فصارت تكتب بها »¹⁹.

تحركت قوى الحداثة والتغريب في محاولاتها لإضعاف اللغة العربية غداة الاستقلال وإلى يومنا هذا جنبا إلى جنب مع القوى الخارجية، متبعة في ذلك سبيلين: الأولى إحلال اللغات الأجنبية محل العربية في ميدان العلوم التقنية والتجريبية بحجة ابتعادها و عجزها عن استيعاب ما استجد في تلك الميادين، ثم الانتقال إلى الاستعانة بها في الميادين الإنسانية والاجتماعية، بدل تفعيلها وتعزيزها وتجاوز عقدة النقص التي لازمتها، بما أن

اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لقاعدة الوضع و الاستعمال، تحي وتنتشر أو تضعف وتنحسر حسب إشعاع منتوجها الفكري والعلمي والإبداعي، إذ « لا توجد لغة متقدمة لذاتها أو متخلفة لذاتها، إن وصف التقدم و التخلف الطويلة؛ وبالتالي فإن اللغة ليست منفصلة عنا نهمها بالعجز و الانحدار و التخلف الطويلة؛ وبالتالي فإن اللغة ليست منفصلة عنا نهمها بالعجز و القصور »²⁰، أما الثانية: فإحلال العامية محل الفصحى في التعبير عن خلجات النفس، نظرا لصعوبة قواعدها واستعصائها على المتعلمين، شأنها شأن اللغات الأجنبية الأخرى؛ وهي رؤية لا تخلو من خطر إضعاف الفصحى، وتفتيت وحدة الناطقين بها، إذ ينعكس ذلك ميدانيا في شكل ازدواج لغوي وثقافي خطير، يشمل النخبة والجمهور على السواء في الوطن العربي، ويتحول مع مرور الوقت إلى فوضى لغوية تمتزج فيها الفصحى بالعامية بالطرانة الأجنبية.

حاول ولد خليفة الإضاءة على أسباب الصراع في هذا الباب من خلال التطرق إلى انقسام النخبة حول مسألة التعريب على ثلاثة أقوال:

ينطلق أصحاب الاتجاه الأول من قناعة مفادها أن تراجع مكانة اللغة العربية الفصحى على المنوال الذي كانت عليه في الجاهلية، وعلى النحو الذي جاء به القرآن الكريم، واستعصائها على الفهم، وعلى مواكبة المستجدات في المجالات التقنية والعلمية حتم اللجوء إلى لغة تحتوي كلمات ذات مدلولات خاصة وصفها بعضهم بـ « اللغة الوسطى الغنية (Langue médiane) ذات الاستعمال الواسع المشترك بين مختلف المستويات الثقافية »²¹.

بينما يعتقد المعارضون لهذا الطرح أن استبدال اللغة العربية الأصيلة بأخرى عصرية يعتبر تمهيدا للتخلي تدريجيا عن الرابطة القوية بينها وبين الإسلام، لأنه إجراء يضر استهداف فصل اللغة عن النص الديني، مصداقا للرؤية العلمانية الشاملة التي تسعى لفصل الدين عن الحياة، أو إقامتها على ضوابط لا دينية، خاصة وأن من بين المساهمين في بعث ما يسمى باللغة العربية الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر لغويون مسيحيون اشتغلوا جنبا إلى جنب مع نظرائهم من مصر وسوريا ولبنان على وضع معاجم جديدة احتوت مفردات مستحدثة في المجال السياسي والاقتصادي والصناعي، تقوم على «

نقل اللفظ الأعجمي إلى العربية، وليس لازما فيه أن تتفوه به العرب على منهاجها، فما أمكن حمله على نظيره حملوه عليه، وربما لم يحملوه على نظيره بل تكلموا ليشترطوا ذلك

«²².

إن فتح المجال لإثراء اللغة العربية بمفردات حديثة رغم كونه حتمية في بعض المواطن غير أنه لا ينبغي أن يتم على حساب الرصيد المعجمي والدلالي الأصيل - حسب ولد خليفة - ، لأن إضافة شيء يقابله حذف آخر، والتطوير يقتضي الاستغناء عن جزء كبير من الصور الأصيلية، وهو ما وقع فيه أنصار هذا الطرح عن قصد أو عن غير قصد، يقول: « من المؤكد أن اللغة التي نطلق عليها في أيامنا هذه اسم العربية العصرية ليست مطابقة للغة التي نزل بها القرآن منذ أربعة عشر قرنا خلت (...) فهؤلاء الرواد أدخلوا مجموعة كبيرة من المفردات تشكل حوالي 60% من اللغة العربية الحديثة، مما يدفعنا إلى القول بأن النهضة حررت اللغة من النص الديني، وأضفت عليها نوعا من الدنيوية خلصة، جعلتها تختلف عما كان يتكلمه ويكتبه العرب القدماء »²³.

أما أصحاب الطرح الثاني فيتعاملون مع اللغة العربية كقرينة للحرية والهوية، ورمز من رموز السيادة الوطنية، ما جعلهم يعتبرون العبث بها ومحاولة إدخال تعديلات مؤثرة عليها شكلا أو مضمونا بمثابة نوع من أنواع الخضوع، والاستجابة ميدانيا لخطط الغرب النظرية؛ فكانت الغاية الكبرى عندهم هي تعميم الفصحى على المستوى الشعبي والرسمي والمؤسساتي، من خلال القضاء على الرطانة الأجنبية المستفحلة في المجتمع، وتصفية اللسان العربي مما علق به من لهجات عامية فرقت شمله، سعيا منهم للوصول بالناطقين بها إلى منزلة تؤهلهم لاستعمال العربية على صعيد التفكير والتأليف والتعليم والثقافة و الإعلام؛ وبالتالي يعد تصحيح الواقع اللغوي عندهم بمثابة عودة إلى الأصل، وإضافة عنصر إلى عناصر المقاومة في شقها الثقافي، يقوم على درء الاتهامات الباطلة للغة العربية بالرجعية والتخلف، ومحاولة البرهنة على ارتباطها بالواقع العلمي والأدبي والاجتماعي والاقتصادي للناطقين بها، لتقع عليهم المسؤولية حينئذ، لا سيما وأنها تعتبر من أثري اللغات على الإطلاق، فلا تعدم ألفاظا ومفردات حتى يستعار لها من اللغات الأخرى، « وإن افتراض لغة الآخرين إقرار بالتأخر، وتقنع بقناع الند، وذوبان في هويته أبد الأبدان »²⁴.

تعامل ولد خليفة مع اللغة معاملة فعالية لا معاملة متعة وتقديس، فاستهدف إقحامها في معركة العلم والتقنية، لكونه الضامن الوحيد للارتقاء بها، مستأنسا في ذلك بالتجارب السابقة لثلة من العلماء العرب قديما وحديثا ممن فرضوا على الغرب ترجمة أعمالهم النفيسة في الفلسفة والأدب، و السير على نهجهم في نظم المتون والأراجيز في مختلف الفنون والعلوم، لحيازتهم سبق وإسهامهم فيما يحظ وافر، غير أنه يراعي في ذلك الطابع المميز للجزائر عن غيرها من البلاد على الصعيدين التاريخي والاجتماعي، لاسيما ما تعلق بتنوع الألسنة وتعدد اللهجات، وهو ما حتم - حسبه- البحث عن لغة تقترب قدر الإمكان من اللغة المعيارية، تكون في متناول أغلبية المجتمع، بحثا عما أسماه " التثقيف العام"، يقول في هذا: « إننا لا نرى بديلا عن تعميم الفصحي وتفصيح العامية، فهذا هو مسار التاريخ منذ أكثر من ألف عام، وما يشهد عليه نضال شعبنا في كل أنحاء القطر، وهو أخيرا المسعى الأكثر مردودية في المستويات الاجتماعية الاقتصادية والثقافية، و إن ذلك المسعى هو رهان الحاضر والمستقبل »²⁵.

أما الاتجاه الرافض للتعريب بقيادة المفكر مصطفى الأشرف فينظر إلى مسألة تجاوز الفصحى مع اللهجات العامية من زاوية مخالفة، فلا يرى مانعا من في المزج بينهما، ودمج العاميات حتى في المؤسسات التربوية، بدعوى غياب القرينة المانعة، واعتبار لغة الأم بمثابة مكمل للفصحى في المدرسة، تساعد على تجاوز الصعوبات التي تميز هذه الأخيرة على مستوى النطق والتركيب، كما يعتبر الدعوة إلى التعريب دعوة إيديولوجية تبتعد عن الموضوعية والفعالية²⁶.

الشيء اللافت في هذا الاتجاه هو إثارته لردود أفعال عديدة كلما طرح كحل محتمل لإصلاح المنظومة التربوية، حيث صاحبتة موجة من الانتقادات، كان مصدرها اعتبارها مرحلة تمهيدية للقضاء على اللغة العربية في إطار سياسة التدرج التي اعتمدها الاستعمار وأذنا به؛ انطلاقا من إقحام ألفاظ دخيلة عليها بدعوى مسيطرة التطور، مروراً بإدماج العامية جنبا إلى جنب مع اللغة العربية كسند لها في التعليم، ووصولاً إلى إحلال اللغة الأجنبية محلها في ميدان العلوم والتقنية، وهو الأمر الذي استهجنه ولد خليفة واعتبره امتدادا للسياسة الاستعمارية، فقال: « إن الدعوة لجزارة اللغة (Algerianité de la langue) (...) تعني أساسا استبعاد الفصحى وخاصة من منظومة التربية والتكوين، والعودة

باللغة إلى مستواها الفقير نسبيا، في بلد تكبد خسائر فادحة من جراء السياسة اللغوية المغشوشة التي طبقها الاحتلال الفرنسي»²⁷.

و رغم كونه لم يحظ بالقبول عند السواد الأعظم من المجتمع عواما ومثقفين، وعدم استفادته من إطار نظري يشرح خلاله الغاية والمنهج، إلا أن هذا لم يمنع وجود ثلة تروج له بين الحين والآخر على امتداد الوطن العربي الكبير، على غرار سلامة موسى، وعبد العزيز فهمي، ومولود معمري، وأنيس فريجة، ومصطفى الأشرف، وغيرهم، كما لا يمكن إنكار التأثير الكبير الذي أحدثه ميدانيا، حيث أضحت العامية لغة الشرح الأولى عند الأساتذة والمعلمين في المقاييس الأدبية والاجتماعية فضلا عن التخصصات العلمية في أطوار التعليم الثلاثة، وبدرجة أكبر المرحلة الابتدائية التي تتكون خلالها المدارك الأولى للتلميذ على الصعيد اللغوي والفكري.

إن اعتبار اللغة نواة للعلم، ووسيلة للتحرر، و أداة للتعبير على الأفكار في مستوى العصر، جعل ولد خليفة يعتبر استعمال العاميات بدل الفصحى في البلاد العربية نوعا من أنواع التفريق بين أفراد المجتمع، وتوسيع دائرة الخلاف بينهم، والذي يتحقق بفصل الأجيال الجديدة عن تراثها الثقافي، وتقسيم الوطن العربي إلى دويلات وأقطار بلهجات مختلفة، على نحو ما حدث مع اللغة اللاتينية القديمة التي انقسمت إلى لهجات محلية صارت فيما بعد لغات رسمية لشعوبها؛ نذكر منها: الفرنسية والإيطالية والإسبانية، وهو ما يولد تعصب كل فئة إلى لهجتها (لغتها بعد ذلك) و تزايد ظاهرة الانفصال اللغوي في كل بلد على حدا، يقول ولد خليفة: « وحتى داخل المجتمع الواحد فإن اللغة العربية ذات العلاقة الحضارية الوثيقة بالإسلام (ولا علاقة لذلك بالتقديس الأسطوري للحرف) توجه لها تهم بإيعاز من نفس تلك القوى، وتعلو أصوات من بين فئات الأنتيجلانسيا لربطها بعنصر وتخفيضها من مستوى القوم إلى مستوى العشيرة والفصيلة والقرية»²⁸.

لم يكن انتقاد الباحث لأصحاب هذا التوجه مبنيا على تأثيرهم السلبي في البنية الثقافية فحسب، وإنما كان هناك سبب آخر تمثل في طريقة تعاملهم مع المسألة اللغوية بشكل عام، حيث أبدى امتعاضا من السياسة التي ينتهجها هؤلاء كلما تعلق الأمر بمقارنة العربية مع لغة من اللغات الأجنبية، إذ يعدون السعي لتعميم العربية في أوطانها دعوة إيديولوجية، بينما يعتبرون التفتح على ما سواها ونشره في غير موطنه تقدمة وتجديدا؛

وهو ما تمخض عنه حالة من التبعية، أسهم الازدواج اللغوي والصراع الفكري في تذكيتهما، « فلما تتحدث تلك الفئات عن العنصر و الهيمنة القارية التي تمارسها الإنكليزية في الكمنولث والفرنسية في مجموعتها الأفرو كندية، والإسبانية في جنوب أمريكا وآسيا، فذلك ميراث و روابط تاريخ ومركبة سريعة للتقدم، وهذه أيضا حجج تم تلقيها من الأقوى، والأضعف دائما ما يتحمل نتائج ضعفه في مركبة للتقدم لا يقودها، وينتظر أن يتبرع عليه ربانها بمقعد خلفي »²⁹.

5. الأمازيغية لغة وثقافة :

خلافًا لم يروج له قديما وحديثا لا تنفك الأمازيغية في الفكر الجزائري عن ركني الحضارة الآخرين، فهي لم تحمل عداوة لا للإسلام ولا للعروبة، بل احتضنتهما وشكلت بالتوازي معهما قاعدة الهوية الثلاثية، وقد أبدى ولد خليفة اهتمام خاصا بها لاعتبارات عدة، أهمها حالة التهميش التي طالتها سواء كلغة أو ثقافة، ووجودها ضمن نطاق القاعد الاستعمارية " فرق تسد" التي استهدفت ضرب المجتمع في وحدته، إضافة إلى التجاهل الذي أظهره غالبية الجزائريين تجاهها، وانقسامهم إلى فريقين: أحدهما اهتم بالتعريب وأهملها، والثاني شغله الصراع السياسي عن تطويرها وتوحيد لهجاتها، فتمخض عنه صراع إيديولوجي بثنائيات متنافرة، لم تعهده الجزائر في سالف العصر، فعد ذلك من باب الشذوذ، « إن العربية لم تكن أبدا لغة أجنبية أو مكروهة في بلاد القبائل، وأن الصراع الثقافي اللساني السياسي لا يتفق و لا ينسجم مع ماضي المنطقة، و دورها في الذود عن مقومات الأمة، و المساهمة البارزة في إثراء التراث العربي الإسلامي، و الاستماتة في الدفاع عن حرية وكرامة الشعب الجزائري »³⁰.

رغم اعتراف الباحث ضمينا بعجز الاستعمار عن تفكيك الوحدة وبث الشقاق والفرقة على مدار الفترة التي اتخذ فيها من الجزائر مستقرا، إلا أن هذا لم يمنعه من ذكر طرائق وأساليب الهيمنة المستحدثة من قبل الحركات الاستعمارية، التي تمارس بالوكالة من قبل المواليين لها كمحاولة لهدم المركز وإضعاف الأمة من الداخل؛ ففي الجزائر مثلا بعد فشل خطط النيل من العربية بوصفها لغة دخيلة على المجتمع، غرضها مزاحمة الأمازيغية الأصيلة وتحييدها تدريجيا للحلول محلها، وفشل القضاء على الدين الإسلامي، ببث الشبهات فيه، وإنشاء فرق ضالة أفسدت على الناس دينهم، تغيرت الوجهة نحو

الأمازيغية، حيث عدّ الافتخار بها لسانا وتراثا جهوية ونزعة للأقلية والانزواء والتمييز، على منوال قولهم إن الاعتزاز بالإسلام تعصب وانغلاق، والدفاع عن العربية إيديولوجية ومؤامرة، رغم أن « الجهوية ليست نزعة عرقية، بل هي جزء متضخم أو متورم من الانتماء الوطني الأوسع »³¹، مثلما يرى باحثنا، الذي يعزز موقفه بالقول: « من المزايدة غير المقنعة اعتبار المدافع عن الأمازيغية في إطار الجذع المشترك جهوي أو عنصري، فالتصنيف الإثنولوجي للشعوب أصبح منذ مدة طويلة خرافة أقرب إلى الغش والتدجيل من الناحية العلمية والعالمية »³².

سعت طائفة من أصحاب الثقافة والفكر الغربي إلى استكمال المشروع الاستعماري بطرح مشكل العربية والأمازيغية كمتقابلين، والادعاء أن الشعوب الأمازيغية في المغرب إنما أسلمت وتعربت تحت ضغط وإكراه سياسي من لدن الفاتحين المسلمين، الذين يعتبرونهم في حقيقة الأمر محتلين لا يختلفون كثيرا عن النوميديين والإنجليز والأتراك والفرنسيين الذين مروا على هذا البلد، وأن علاقتنا بالإسلام والعربية علاقة إيديولوجية سياسية، أما البعد الثقافي فيجب البحث عنه بالرجوع إلى ما قبل الثقافة العربية الإسلامية؛ مما ورث سياسة الفصل بين الأشياء والأفكار، وشمل ذلك حتى الراية الوطنية التي شكلت حدثا في الحراك الشعبي في الجزائر من خلال اعتماد رايتين: الأولى تمثل علم الجزائر كعلم سياسي رسمي، والثانية العلم الأمازيغي كرمز للموروث الثقافي الشعبي، و معبر عن الأصالة والتاريخ، حتى عد ذلك أساسا بالوحدة الوطنية، ومخالفة يعاقب عليها القانون.

لقد أسهمت تلك الفئة في تجسيد المشروع الاستعماري على أرض الواقع بتعمد إثارة معركة لغوية حول أسبقية إحداها على الأخرى، وأيهما الأصل والأقرب للانتماء، العربية أم الأمازيغية، فاعتبر قوم أن هذه الأخيرة مجرد لهجة لا ترقى لمستوى اللغات الرسمية، ورد عليهم آخرون باعتبار العربية لغة دخيلة على المجتمع، ما دامت الأمازيغية تاريخيا هي لغة السكان الأصليين، و لولاهم لما حصل لها التمكين، و هو ما خدم العرقية المنبثقة عن نظرية الاحتواء الثقافي الاستعمارية التي استهدفت « الإغلاء من شأن العرق الأمازيغي، و الحط من العرق العربي »³³.

أفضت تلك النزاعات إلى توسع رقعة الخلاف، فأضحت القضية اللغوية شكلا من أشكال النضال، تجاوز البعد الثقافي، و « الاستعمال الذرائعي للغة »³⁴، وامتد ليشمل

ميادين أخرى، حيث استغل من قبل أطراف سياسية أسهمت في زيادة الاحتقان، و في إصابة الوحدة الوطنية في مقتل، من خلال التركيز على ما يفرق و إغفال ما يجمع؛ فكان من مخلفات ذلك ما حدث ذات ربيع من عام 2001م من مواجهات دامية بين أبناء الوطن الواحد، انتهت بحصيلة جاوزت المائة قتيل، تبعها دعوات مغرضة للانفصال، قادها أناس نصبوا أنفسهم ناطقين رسميين عن منطقة القبائل؛ ووصل الأمر ببعضهم إلى تأسيس حكومة انفصالية مؤقتة تناضل في سبيل تقسيم الوطن، من خلال الدعوة إلى الاستقلال بمنطقة القبائل، ومنحها حكما ذاتيا، في صورة حركة (المالك)، ومن أثار تلك الدعوات ما حدث ويحدث في غرداية بين العرب المالكية والإباضية الأمازيغ من مشاحنات ومعارك دامية بصفة دورية.

وهي أحداث اعتبرها بعضهم نتيجة طبيعية للصراع الثقافي الذي تشكلت ملامحه في أكتوبر 1988م، بإثارة مجموعة من الملابس المتصلة بمسألة الهوية والانتماء، بإيعاز من أطراف خفية بعضها داخلي و الآخر خارجي، يقول ولد خليفة: « فما يسمى بالانفجار أو خريف الغضب أو فجر الديمقراطية هو لحد الآن حالة معلقة بين تأويلات التمرد و الانتفاضة و التآمر، لم يكشف المعنيون بالتاريخ المباشر كل أسرارها وطبيعة العلاقة بين النوايا والأفعال والفاعلين »³⁵.

لا يجد ولد خليفة فرقا بين ما يشكله الاستغناء عن اللسان العربي والدين الإسلامي الحنيف من خطر على البنية الثقافية والهوية الوطنية، وبين ما يترتب عن تجاهل الأمازيغية أو التعصب لها وإدخالها في صراع لغوي وحضاري مع الأصول الأخرى للشخصية من إحداث للقطيعة بين ما حكم التاريخ و الواقع و التراث باتصاله، حيث يعتبر ذلك شذوذا لم تعرفه الجزائر قبل، وتعطيلا لوظائف أركان الهوية القائمة على « إسلام يجمع ويوحد، وعربية لا علاقة لها بالعرق أو الطائفية، ولا بالتقدم أو التخلف، وأمازيغية سكنت بيت الإسلام وسكن إليها في تناغم ووثام »³⁶.

إن المتعمق في القول المذكور أنفا يشعر أن الباحث بصدد الرد على جملة من الادعاءات المتعلقة بكيفية تشكل أركان الهوية، وبالطريقة التي تبني بها المجتمع الجزائري العروبة والإسلام، ويتعامل الإسلام كديانة مع اللغات ونظرتها إليها؛ حيث تظهر قناعته بأن الإسلام يجمع بين من يدينون به على اختلاف لغاتهم وألوانهم وأنسائهم، وأنه لم ينشر يحد

السيف، بدليل دخول الأمازيغ فيه طوعا لا كرها، وأن اللغة بالقوم يفعلون بها ما يشاؤون، تكسب منزلتها بما تقدمه للإنسانية من إنجازات علمية و أدبية، و لا علاقة لذلك بالإيديولوجيا، ويتأكد هذا من خلال قوله: « العربية ليست خصما للأمازيغية، وهي لغة أصيلة، ولم تفرض بحدّ السيف، وهي لا تعادي اللغات الأجنبية إذا كانت الأخيرة مجرد أدوات لمعرفة الآخر، والاستفادة من تلك المعرفة؛ فمن تعلم لغة قوم اتقى شرهم، ويمكن أن نضيف استفاد من خيرهم أيضا »³⁷.

يرجع بعض المختصين الإرهاصات الأولى لظهور النزعة الأمازيغية بطابعها الانفصالي إلى السنوات الأولى بعد الاستقلال، وتحديدًا بعد سن الدستور، لافتقاده إلى إشارة واضحة تحيل على الأمازيغية كلغة وطنية أو رسمية، مقابل ورود ركني الهوية الآخرين في مطالعه بنصوص صريحة لا تحمل شكًا ولا تأويلًا، ما ترك الانطباع بوجود نية في إقصاء البعد الأمازيغي من مقومات الشخصية الوطنية؛ إذ رغم تبرير الطرف الآخر لموقفه بوجود مادة أولى تشدد على الوحدة الوطنية والترايبية للوطن، والتي تدخل فيها منطقة القبائل ضرورة، إلا أن الجانب الأمازيغي لم يقتنع بهذا، بل زادت مخاوفه مع تنامي موجة الفكر القومي الذي اجتاحت العالم العربي يومئذ، وانضمام الجزائر إليه كطرف فاعل، خاصة و أنه فكر ينتج « رفض الآخر، و يبرر الغزو، و يستبعد الأقليات وكل من يبتعد عن " النحن " أو ينتقدها »³⁸، و هو ما حمل معه ردة الفعل التي نعرف من الأمازيغ، المقتنعين أن تبني نظام معين حسب الأعراف السياسية يقتضي إقصاء ما سواه، وهذا الذي جعل ولد خليفة يؤكد أن مسؤولية الاهتمام بها تقع على عاتق الدولة والمجتمع معا في قوله: « لا بد هنا من التأكيد على أن الأمازيغية بكل لهجاتها هي لغة وطنية جزائرية بحكم الواقع و التاريخ و التراث (...) و الاتصال بها وتطويرها من واجبات الدولة و المجتمع كله، ولذلك فهي مثل العربية لا تقبل الخصوصية والأفكار والوصاية من أساطين فرق تسد، الذين يدعون غيرهم لقبول الاختلاف وينسون أنفسهم »³⁹.

يستنتج من هذا أن الصراع الدائر في الجزائر حول اللغة و العرق و العقيدة لا يعد مجرد محاولة لزعة مثلث الهوية من أساسه، وفق معايير تخضع للتعصب، وتفتقد للضوابط الشرعية و التاريخية و الاجتماعية، ما يجعل منه موضوعا أقرب إلى الجدل منه إلى العلم و الفكر، و هو ما تفتن له رئيس الوزراء السابع للهند رجايف غاندي الذي

التقاء ولد خليفة في طهران عام 1989م، حين قال له: « عندنا مشاكل نبحث لها عن حلول، و عندكم حلول تبحثون لها عن مشاكل، مع أنفسكم، مع ماضيكم، وحتى مع الله ! »⁴⁰، و هو الأمر الذي أرجعه ولد خليفة « لضعف الدولة وانعدام استراتيجية توحيدية و ليس أحادية »⁴¹.

إن مسألة الأمازيغية في الجزائر تتجاوز مجرد النزاع اللغوي، إنها مسألة انتماء لا يستطيع أي جزائري كائنا من كان أن يتنصل منها، أو أن ينكر الخصوصيات المحلية المشتركة بين المواطنين الذي تعايشوا في كنفها قديما وحديثا؛ الأمر الذي جعل ولد خليفة يدعو إلى ضرورة البحث عن آليات مناسبة لتطوير الأمازيغية، حتى لا تبقى مجرد وسيلة لإضعاف العربية من طرف جهات مشبوهة سعت للاستثمار في ذلك الوضع بهدف التمكين للغة ثالثة تكون غالبا لغة المستعمر القديم؛ وهذا ما قصده بقوله: « إن الذي لا فائدة منه و لا مردود هو أن تكون الفرنسية حكما بين الأمازيغية والإسلام والعربية لاغتصاب مكان مثلث الهوية، وأن يتخذ البعض واحدة من تلك الأركان الثلاثة حصان طروادة لبث الشقاق والفرقة والتقييم الإثني اللساني المزعوم »⁴².

وقد صدر الباحث عن هذه الرؤية بعد دراسة عميقة للواقع، إذ من المعلوم أن اللهجات الأمازيغية تربو عن أحد عشر لهجة بفروق بسيطة بينها أحيانا وعميقة أحيانا أخرى، ما جعله يتساءل حول اللهجة الممكن اتخاذها كلغة، حيث انتهى إلى أن السبيل الوحيد لذلك هو اجتماع تلك اللهجات على كلمة سواء، ثم الاتفاق على الحروف التي تكتب بها، محبذا استعمال الحرف الأمازيغي (التيفيناغ)، ومنه الوصول إلى سبل تطويرها من خلال الإبداع في مختلف الفنون والعلوم؛ فالإصلاح يبدأ من الداخل، لأنه « ميدان ذا خصوصية، لا يحتمل إسقاط نظريات وتوصيات أجنبية - ملغمة - تدخل في إطار تسييس العلم وعلمنة الهيمنة وتطبيقها حرفيا عليه »⁴³؛ و لا يتأتى ذلك - حسب - إلا عن طريق العناية بها كجزء من الذات التاريخية والثقافية للأمة، لئلا تقع في نفس الأخطاء المنهجية المرتكبة فيما يتعلق بتعميم العربية فتعود القهقري.

6. خاتمة:

مجمل القول بعد الذي ذكر هو أن الصراع الهوياتي في الجزائر أخذ أشكالا متعددة شملت اللغة والدين والعرق، ما يعني أن باعته الحق لم يكن الاختلاف حول

الانتماء بين العرب و الأمازيغ مثلما يروج له، و إنما هو خلق حرب إيديولوجية لزعة مثلث الهوية و تفتيت وحدة المجتمع، وعليه صار من الجدير ختاماً رصد محصلة لأهم النتائج التي اهتمت إليها الدراسة و التي يمكن إجمالها فيما يأتي:

- لا يعدّ طرح الأمازيغية كمقابل للعروبة والإسلام بريئاً، لأن الادعاء بأن الشعوب الأمازيغية في المغرب إنما أسلمت وتعربت تحت ضغط و إكراه سياسي من لدن الفاتحين المسلمين لا يملك رصيда في الواقع، بدليل أنها سكنت إلى العروبة والإسلام في تناغم و وئام، وهي لغة وطنية جزائرية بحكم الواقع و التاريخ و التراث.

- إن بناء المجتمع الأمة و الدولة الأمة يقتضي حسب ولد خليفة الوصول إلى نوع من الوفاق بين الذات و الآخر أو بالأحرى نوع من التوازن داخل الذات المتعددة، بعيداً عن عزل البنية الثقافية عن سياقها العام الأصلي.

- اللسان لم يكن يوماً معيار الاحتكار الوطنية، والدولة القوية هي الكفيلة بالحفاظ على تماسك النسيج الاجتماعي، والانتماء الجمعي، باعتبار أن المواطنة هي قيمة مطلقة تلغي نظرياً التمييز بين الطبقات، و إلا تحول الأمر إلى معضلة طائفية يبحث أصحابها عن انتماء خارج الحدود الجغرافية و الإطار الحضاري العام.

7. الهوامش:

- 1 مولود قاسم نايت بلقاسم، هذه المجلة، مجلة الأصالة، الجزائر، ع1، س1، محرم 1391هـ/ مارس 1971م، ص2.
- 2 محمد العربي ولد خليفة، الجزائر المفكرة والتاريخية أبعاد ومعالم، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، (د ط)، الجزائر، 2007م، ص34.
- 3 محمد العربي ولد خليفة، التحولات الاجتماعية والسياسية، ملامح الحاضر ومتطلبات جزائر المستقبل، دار القصبة للنشر، (د ط)، الجزائر، ص29.
- 4 محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، منشورات ثالة، (د ط)، الجزائر، ص105.
- 5 نفسه، ص109.
- 6 نفسه، ص111، 112.
- 7 نفسه، ص112.
- 8 نفسه ص185.
- 9 نفسه 122.
- 10 مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، (د ط)، دمشق، 1405هـ/ 1985م، ص64.
- 11 مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د ط)، دمشق، 1406هـ/ 1986م، ص51.
- 12 محمد العربي ولد خليفة، مدخل لدراسة الهيكلة الجديدة للعالم، منشورات ANEP، (د ط)، الجزائر، 2013م، ص73.
- 13 نفسه، ص45.
- 14 محمد العربي ولد خليفة، التحولات الاجتماعية و السياسية، ملامح الحاضر و متطلبات جزائر المستقبل، ص247، 275.

- 15 محمد العربي ولد خليفة، الأزمة المفروضة على الجزائر (مقاربة أولية على هدي استراتيجية ثورة التحرير الوطنية)، شركة دار الأمة للطباعة و النشر، ط1، الجزائر، 1988م، ص15، 14.
- 16 محمد العربي ولد خليفة، الأزمة المفروضة على الجزائر، ص60.
- 17 نفسه، ص15، 14.
- 18 محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ص378.
- 19 عبد العزيز بن عثمان التويجري، الثقافة العربية والثقافات الأخرى، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والتعليم والثقافة، ط2، إيسيسكو، 1436هـ/2015م، ص15.
- محمد العربي ولد خليفة، مقاربات نقدية، دار الخلدونية، (د ط)، الجزائر، (د ت)، ص 10320.
- 21 محمد العربي ولد خليفة، الجزائر المفكرة والتاريخية أبعاد ومعالم، ص305.
- 22 عبد العزيز محمد حسن، التعريب في القديم والحديث مع معاجم الألفاظ المعربة، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، 1990م، ص47.
- 23 محمد العربي ولد خليفة، المنطقة العربية الإسلامية، مدخل إلى نقد الحاضر ومساءلة الآخر، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، تيزي وزو (الجزائر)، 2007م، ص308.
- 24 عبد المجيد مزيان، مظاهر المقاومة في الثقافة الجزائرية، مجلة الأصالة، س2، ع8، ربيع الثاني - جمادى الأولى 1392هـ/ ماي - جوان 1972م، ص157.
- 25 محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ص169، 170.
- 26 نفسه، ص223، 224.
- 27 نفسه، ص168.
- 28 محمد العربي ولد خليفة، مدخل لدراسة الهيكلة الجديدة للعالم، ص73.
- 29 نفسه، نفس الصفحة.
- 30 محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ص357.
- 31 نفسه، ص358.
- 32 محمد العربي ولد خليفة، الأزمة المفروضة على الجزائر، ص162.

33Voir , C R Ageron , les Algerien musulmans et la France, et P Lucas, J Atin, L'Algerie des anthropologies, Paris, La Couverte, P145.

34 محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ص169.

35 نفسه، ص176.

36 نفسه، ص18.

37 محمد العربي ولد خليفة، مقاربات نقدية، ص10.

آلان توران، نقد الحداثة، تر: أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، (د ط)، القاهرة، 199738م، ص423.

39 محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ص261.

40 نفسه، ص176.

41 محمد العربي ولد خليفة، التحولات الاجتماعية والسياسية، ملامح الحاضر ومتطلبات جزائر المستقبل، ص272.

42 محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ص221.

43 محمد العربي ولد خليفة، الجزائر المفكرة والتاريخية أبعاد ومعالم، ص255.

*** **